الأدب العراقي في العصر المغولي

((بحث أولي مختصر[1]))

للأدب العراقي العربي في عصوره كلها خصائص باهرة وسمة ظاهرة عرفها الآدباء منذ الأزمان الخالية واعترفت بها الأذواق الأدبية منذ ميزت بين فنون الآداب العربية وضروب المشاعر المحبّرة والمأثورة فاستلذتها أيما استلذاذ والسبب في ذلك أن الأدب بمعناه العام ، على اختلاف أنواعه وتباين ألوانه وتفاوت فنونه إنما هو نتائج الألباب وثمارُ النفوس معاً أي نتاج العقل والعاطفة معاً ومن ثمّ كان كثمر الشجر وأجناسِه المتنوعة ، وكألوان الزهر بأزاهره المتضوعة ، يَطيبُ بطيبِ الأرومة ويَعبقُ شذاه بعَذارة الجُرثومة .

وإنما تهيأت للأدب العراقي العربي تلكم الخصائص بما رُزق العراقيون من الذكاء والزكاء والرقّة والحلاوة والوراثةِ الأدبية النبيلة ، فزكا أدبهم وتفنّن وطبع على الجودة والنبالة ، فأصبحتا من سجاياهُ ومزاياه ، وغبرَ على هذه الصفة طَوال العصور الاسلامية خلا فترات شذّ فيها عن سبيله لما اعترضَهُ من غير الدهر ، إلا أنّ ذلكم الشذوذ كان عارضاً من العوارض فالخصائص الأدبية العراقية بقيت على جوهرها وأقامت على حقائقها كما تبقى الكواكب وراءَ السحاب في الليلة الحالكة .

إني لم أقل هذه المقالةَ تعصّباً للعراقيين ولا افتياتاً على الأذواق الأدبية ولا مجازفة في الحكم وانما قلتها بعد أن توفّرت الشهادات وتوافرت لكرامة الأدب العراقي العربي واستفاضت على الألسنة وفشت في الكتب وتنوقلت وأثرت ولذكرها موضعٌ آخر أشبعتها فيه تبياناً واستشهاداً إلا أني لا أودُّ أن أجوز التنويه بها دون ذكر أبيات لأبي القاسم عبد الواحد بن محمد المطرز الشاعر البغدادي من أهل القرن الرابع والقرن الخامس للهجرة قال :

---

(١) لنا كتاب مفصل في هذا الموضوع لايزال خطياً .

عسى طيفُ المَلَمّة بالنعيم ... يُلِمُّ بنا على العَهْد القديم
لعلَّ خيالَ ذاتِ الخال يسري ... فينقَع غُلَّةَ النضو السقيم
أُرِقتُ له أُماطِلُ فيه هماً ... يلازمُني مُلازمةَ الغريم
وكيفَ ينامُ عشق تَغْلَبيّ ... تؤرّقهُ ظِباءُ بني تميم ؟

قال الباخرزي الخراساني في هذه الأبيات « هذا لعمري هو الشعر الذي ورد دجلة فارتوى بزلالها وزُوّح بشمالها فرفل في سربالها واستفاد الصحة من اعتلالها »[1] . ولا شك في أنّ أثر الصنعة الشعرية ظاهر على الأبيات ولكنّ الصنعة الأدبية إذا بلغت الذروة أشبهت الأدب المطبوع لأنّ الغرام بالفنّ يستمد من الملكة والطبع معاً ، وقد ثبت أنّ صدق الشعور وحده لا يكفي في دعوى روعة الأدب ، كما ثبت في الفنون على اختلافها أنّ التقليد فيها يبلغ أحياناً مرتبة المقلَّد فلا يمكن التمييز بينهما إلا بشيء غير فني . وانا لنجد كثيراً من الرثاء المأجور والرثاء المقترح والغزل المتكلَّف يفوق الصادق منهما وحسبُكم شاهداً على ذلك غزل كمال الدين ابن النبيه في قصيدتيه « أماناً أيها القمر المطل » و « أفديه إنْ حفظ الهوى أوضيما » ورثاؤه الملك المعظم أبي الحسن علي بن الخليفة الناصر لدين الله بأبياته التي يقول فيها :

والموتُ نَقّادٌ على كفّهِ ... جواهر يختار منها الجيادْ
أرغمتَ يا موتُ أنوفَ القنا ... ودُسْتَ أعناقَ السيوف الحداد
كيف تخرَّمت عليّاً وما ... أنجدَهُ كلُّ طويلِ النجادْ ؟
نجلَ أمير المؤمنينَ الذي ... من خوفهِ يُرعَدُ قلبُ الجمادْ
نازلةٌ حلّتْ فمن أجلها ... سَنَّ بنو العباس لُبْسَ السَّوادْ

والأدب العراقي في العصر المغولي وثيق الصلة بالأدب العراقي في العصر العباسي الأخير بحكم الزمان والذاتية ، تصلُ بينهما بُرهة خضرمة وهي الفترة التي فصلت بين العصرين وفيها درجتْ طبقةُ الأدباء الذين نشؤوا في أواخر الدولة العباسية وأدركوا الدولة الايلخانية التترية المغولية ، وفيها أيضاً نشأت الطبقة الأولى للأدباء الجدد العاقبين لهم فخضرمو الدولتين

(١) دمية القصر ٥ ص ٧٩ — ٨٠ .

العباسية والايلخانية من الشعراء مثلاً هم في عداد أدباء العصر العباسي ، لأن نشأتهم كانت فيه وصبغتهم كانت منه وما طرأ عليهم من المؤثرات لا ينفي عنهم أن يكونوا تلامذته على التعيين وخريجيه على التحقيق والتمييز .

وكانت للشعراء دولةٌ في الدولة العباسية على عهدها الأخير فقد كان الخليفة الناصر لدين الله أحدث لهم ديواناً هو « ديوان شعراء الخلافة » أو « ديوان شعراء الديوان » وجعل لهم مقدماً يقوم مقام ملك الشعراء أو أميرهم كما يسميه المصريون ، وأجرى عليهم جرايات معلومة وكان عليهم في مقابل ذلك أن ينظموا القصائد في مواسم الدولة وأزمان التهاني وأيام المآتم فكانوا تجار أدب يبيعون أفراحاً وأحزاناً منظومة ولكنهم في أثناء ذلك يتجاودون ويتباتنون ويتبارون ويتفاخرون فيسمُّون بالشعر ويجوّدون صناعته ما استطاعوا التجويد . ولم تكن الدولة تشجعُ على الأدب المنظوم باكثر من هذا اذ لم يكن في استطاعتها أن تفعل أكثر من هذا الاحسان ولا أن تولّد الشعور في النفوس لمصلحتها ، فهذا الأدب ، وان كان مأجوراً ، يمثل صوراً جميلة في البراعة في فنون النظم ويحفز القرائح الى اللهج بالشعر والافتنان فيه . ومن هذا الشعر الذي وصفتُ اكثر ديوان سبط ابن التعاويذي الذي هو روضة غنّاء من رياض الشعر العراقي بلغ فيه الفن الشعري الصناعيّ غايته القصوى .

ولما سقطت الدولة العباسية أصبح العراق صُقعاً من أصقاع الدولة الايلخانية الشاسعة الأطراف الواسعة الأقطار ، وقسم أقساماً تصرّفية أي إدارية ، ونُصب في كل منها ملك فكثر الملوك بالعراق وأصبح العامل الكبير في هذه الدولة بنعت بالملك . وحاولت الدولة الايلخانية فصل العراق عن الأقطار العربية الأخرى الخارجة عن حكمها ولا سيما الشام ومصر محاولة شديدة . ولقد حكمت بالقتل على جماعة اتهموا بالمنابأة السياسية .

والدولة الايلخانية دولة حربية جافية بداويّة ولا صلة للغتها بالعربية ولم تكن بداوتها كبداوة الأعراب : تعتمد على المقامات الحسان في البيان ، وتستحب الفصاحة والبلاغة ، وتعُدُّ الشعر من مظان مفاخرها الأدبية والعقلية معاً ، وكنوز مخبرها المعنوية ، وانما كانت ثقافتها في الثقافة

واستعمال السلاح ، وعلمها سياسياً حربياً ، ولم يكن يفقه عندها إلا علم التصرف أي الادارة ، القائم على السياسة وضبط الأمور المالية من جباية واستيفاء وتثمير واستثمار وتعمير واستعمار ومعرفة اللغات كالمغولية والخطائية والفارسية أما الطب وعلم التنجوم لاختيار الاوقات فلم تكن عنايتها بهما أكثر من عناية الدولة العباسية بهما (١) .

وقد أسلم من قاآنيها أي سلاطينها أحمد تكدار بن هولاكو ومحمود غازان بن أرغون ومن بعده فكان اسلامهم تأييداً للاسلام والعلوم الدينية وترغيباً في طلبها الا انهم لم يعلموا اللغة العربية ولذلك لم يكن مأمولاً من ملوك هذه الدولة الكبار أعني القاآنين ولا من أمرائهم أن يرعوا اللغة العربية فضلاً عن آدابها رعاية خاصة كما كان الخلفاء يفعلون وانما كانوا يرونها لغة الدين حسب ، على ان العربية كانت طوال عهد الدولة المذكورة لغة الدراسة والتأليف والحديث والخطابة وفروع الأدب الأخرى وخصوصاً الشعر ، وكانت أيضاً لغة الادارة داخل العراق . وانضمت الى ذلك عوامل أخرى ، أنا ذاكرها ، ورعت مؤرخ الأدب الحصيف عن أن يسمي هذا العصر الأدبي بالعصر المظلم لأن تبدل الدولة والتباين بين اللغتين العربية والمغولية لم يستطيعا وقف التيار الأدبي العربي ولا اخماد القرائح حتى يقال : إن الأدب انتقل من نور الى ظلام . والسياسة اذا استطاعت وقف الأدب المأجور ، بالاعراض عنه والتهاون بأصحابه ، فانها لا تستطيع وقف الأدب الموتور ولا اسكات الأدب الثائر ولا رد نفثات الصدور .

فالأدب العراقي العربي استمر في هـذا العصر متماسكاً متثاقلاً وأما الضعف الذي أصابه فلم يكن ممكناً التفادي منه لما ذكرنا من أنّ الدولة العباسية نفسها كانت تأخذ بضبعه ولأن الاستعراض أي القتل العام اجتاح الأدباء كما اجتاح غيرهم من الناس فقللوا قلة ظاهرة وسنوضح ذلك في موضع آخر ، على أننا لا ننكر ان ذلك الضعف اشتد بمرور الايام حتى بان سوء أثره في المظاهر الأدبية دون الجواهر . ونود أن نذكر اكثر العوامل التي استدامت حركة الأدب العراقي العربي وهي سبعة ثم نتبعها خصائص هذا الأدب في هـذا العصر .

(١) راجع التاريخ الفخري للمؤلف نبذة حسنة في هذا الأمر ، ص ١٢–١٣ .

١ ـ فالعامل الأول هو أنّ أكثر رجال التصرف في العصر المغولي أي أكثر العمال كانوا من العراقيين الذين خدموا الدولة العباسية ومن أبنائهم ومن غيرهم من أهل العراق أيضاً. وكان ميلهم الى الأدب العربي طبيعياً ونتيجة لطبيعة أذواقهم، وكان جماعة منهم يتعاطون الأدب ويقرضون الشعر كفخر الدين مظفر بن الطراح وقد قتل سنة ٦٩٤ هـ ومن شعره ما قاله وهو مسجون بدار النيابة ببغداد قبل أن يقتل بأيام:

القـــولُ فيما مضى من عُمرنـا هدرُ ... فدعـــهُ واصبرْ لما يأتي به القدرُ
واســـتشعر الصبرَ انّ نابتك نائبةٌ ... فالصـــبرُ أجملُ ما حُلّيْ به البشرُ
ولا تَرُعْكَ من الأيام منقصَـــةٌ ... فشيمـةُ الدهر في أبنـــائهِ الغِيَرُ
وانْ أرَ الآن بعد النُطق ذا حَصَرٍ ... فسوفَ يذهبُ عني العِيّ والحصرُ
وانْ تُصبني سِـهامُ الخطبِ نافذةً ... فلم تَزُل أسـهمُ الأيام تعتذرُ
وكلُّ حادثةٍ في الدهرِ هَيّنـةٌ ... إذا غدا ســالماً في طَيّها العُمرُ
قُل للعُناةِ من الغاباتِ ويحكم ... طيبوا فقـد فُقِدَ الرئبالُ الذِمرُ
وقُلْ لبيضِ السيُوف المرهَفاتِ لدى الـ . . . أعمـاد قرّيْ ففد أودى به القدرُ
مضى المظفرُ ليثُ الغاب عن كثب ... فليهن أعـداءه من بَعْده الظفر (١)

ثم ان الولاة الفرس الذين حكموا في العراق على عهد هذه الدولة كانوا تثقفوا بالثقافة العربية الاسلامية باللغتين العربية والفارسية زيادةً على ثقافتهم الفارسية في الأدب خاصة واعتاد كتابهم على مذهب قدمائهم، ترصيع رسائلهم بجوامع الكلم العربية ورأوا أكثر شعرائهم يفضلون النظم بالعربية على النظم بالفارسية فكتاب التاريخ الفارسي المسمى بجهان كشا أي فاتح العالم (وهو تأريخ جنكيز خان تأليف الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني والي العراق بعد فتح المغول وقد ولي العراق اكثر من عشرين سنة) مُرصّع بكثير من الأبيات العربية الرائقة وشعر اليتيمة للثعالبي وغيرها ولعلاء الدين نفسه شعر بالعربية وان كان مشكوكاً فيه فمن ذلك بيتان يتغزلُ بهما

(١) الكتاب الذي وسمناه بالحوادث الجامعة ص ٤٨٥ـ٦ .
(٢) الكتاب الذي وسمناه بالحوادث الجامعة ص ٤٨٥ـ٦ .

بجارية مغولية كانت تسكن بالطيب شرقي العمارة الحالية اختارها الصفدي لكتابه الأدبي الحافل « الغيث المسجم في شرح لامية العجم » وهما :

أبادية الأعراب عني فانني ... بحاضرة الأتراك نيطت علائقي

وأهلك يا نجلا العيون فانني ... فُتنتُ بهذا الناظر المتضايق[1]

وفي تاريخ وصاف الحضرة الفارسي مجموعة شعرية من أنفس أشعار العرب استشهد بها مؤلفه في مواضع كثيرة والقاضي نظام الدين الاصفهاني من فحول شعراء الفرس وقد عاصر الدولتين العباسية والايلخانية استمر على النظم بالعربية بعد سقوط الدولة العباسية وديوان شعره الذي وسمه بديوان المنشآت ناطق بذلك ولا يزال هذا الديوان في عداد الكتب العربية الخطية ولعل عروبة لغته منعت القوم من نشره .

٢ — والعامل الثاني من عوامل استدامة الحركة الأدبية في العصر المغولي بالعراق الوقوف وتسمى اليوم الأوقاف فان وقوف المسلمين على المساجد والمعاهد الدينية والمدارس والربط أي الخانقاهات والتكيات ، وعلى الزوايا ودور القرآن الكريم بقيت على حالها وعلى شروط واقفيها واستمرت الموقوفات الدينية على طرائقها ، في حماية علوم الدين والفنون اللسانية ورعاية الفقهاء والمدرسين والمتصوفة والأدباء ، ومن هؤلاء (أعني الأدباء) من كانوا يقيمون في المدارس والمساجد ويعلّمون الأدب والشعر فيها ، وقد زاد في هذا العصر عدد المدارس ودور القرآن العزيز والربط والزوايا فضلاً عن المساجد الا أن الجديدة لم تكن فخمة كالتي بنيت في عصور الدولة العباسية الا المدرسة الغازانية والمدرسة المرجانية .

ويعود الفضل في حفظ الوقوف على مستحقيها وصرفها الى وجوهها إلى الشيخ نصير الدين الطوسي الحكيم المشهور ولأبنائه أصيل الدين الحسن وفخر الدين أحمد وصدر الدين علي ولكن الأبناء لم يبلغوا نزاهة والدهم على ما قال بعض المؤرخين[2] ، على أن مؤرخي العراق أحسنوا الثناء عليهم وقد حاول جماعة من ظلمة الولاة أن يقتطعوا من الوقوف حصة للدولة سمّاها واضعها منهم « الحصة الديوانية » فساءت حال المدارس والمدرسين وغيرهم ، وهاج طلاب المدرسة

(١) الغيث المسجم في شرح لامية العجم .

(٢) راجع فوات الوفيات « ج ٢ ص ١٤٦ » .

المستنصرية وماجوا وضربوا مدير أمور الأوقاف . فلما وليها فخر الدين أحمد بن نصير الدين الطوسيّ سنة « ٦٨٣ » حذفت الحصة الديوانية [١] ، فانفرجت الأزمة وزالت الشدة عن الذين ذكرناهم وزال الخطر عن الأدب والثقافة .

٣ — والعامل الثالث ، ويكاد يكون عاماً في كل شعب عربي ، الذوق الشعبي وهو الذي تعاقبت الدهور على تربيته وتهذيبه وأحكم القرآن الكريم واللغة العربية أصلَهُ وتضافرت طرائق التأديب والتدريس والتعليم والتثقيف على تنميته ، ولذلك لم يكن ميسوراً تحوّل الذوق عما نشأ عليه الا بعد زمان طويل جداً ، ولقوة هذا الذوق الذي كان حفظ الشعر منه أوفر من حفظ النثر ، كانت أشعار المناسبات كثيرة التجدد ، فكان الهجاء في بغداد مثلاً يذهب كلّ مذهب ويقيم الولاة ويقعدهم ، ولقد أثر في الأخبار أن الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني المقدمَ ذكره رتّب في العراق نائباً عن نفسه في الحكم اسمه نجم الدين الأصغر فاجتمع ذاتَ يوم جماعة وكان فيهم أديب من أهل الحلة يعرف بابن الدربيّ وجرى بينهم حديث نجم الدين بن الدُرتوش (الذي كان عامياً أمياً في أيام المعتصم بالله العباسي ، ولفضله ذلك الخليفة وتنفيذه الحزم مكّنه من الإستيلاء على أمور الدولة حتى صار الوزير يرجوه ويخشاه) وحديث نجم الدين الأصغر نائب علاء الدين هذا وهما نجمان فقال ابن الدربي الحلي فيهما :

نجمانِ كلٌّ منهما في بلدةٍ ... لا ناصحٌ فيها ولا مأمونُ
وكلاهما ساس العراقَ فذاك قد ... كان الخرابُ به وذا سيكونُ
إن كان تأثيرُ الكواكب هكذا ... « هذا جنونٌ والجنونُ فنونُ »

فلما بلغت الأبيات علاء الدين الجويني أرمضته وأمضته فأمر بطلب الجماعة [٢] وجرت من جراء ذلك اعتقالات شنيعة ، ولم يهدأ له بال حتى احتال لتسفيه الهجاء بأن جعل قولهم « الجنون فنون » موضوعاً شعرياً دعا الشعراء الى النظم فيه فأجابوه الى ذلك [٣] .

ويدخل في هذا الباب كثير من الشعر الذي تمنعنا خشيةُ التطويل من ذكره وتقصّيه وإنما

(١) الحوادث « ص ٤٤٢ — ٣ » وتلخيص معجم الألقاب « ج ٤ : ص ٢٢٤ » من نسختي الحلية الأولى .

(٢) الحوادث « ص ٤٢٣ » . (٣) تلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ٢٥٩ » ص ٢٧٢ .

نذكر منه ما قاله زين الدين أبو عبد الله الحسين بن الحسن الموصلي المعروف بابن الدهان في سرعة موت من يتقلد قضاء الجانب الغربي من بغداد . وتحرير ذلك أن القاضي صدر الدين محمد ابن شيخ الاسلام الهروي أعيد سنة « ٦٧٧ » إلى القضاء بذلك الجانب والتدريس بالمدرسة البشيرية هناك فبقي على ذلك شهرين وأصبح ميتاً ، فقال زين الدين بن الدهان :

أظن قضي القضاة أيده الله . . . إلى كر دكوه ينتسبُ ؟
إذ كل قاضٍ يقضي الى الجانب الغر . . . بي يقضي وماله سببُ
يا صاحبَ الملكِ يا عطا ملكٍ يا من به الكرماتُ تكتسبُ
ولِّ الاعادي اللئامَ بالجانب الغر . . . بي فصل القضا وقد نكبوا (١)

وقال فخر الدين محمد بن الأشرف العلوي في هجو عماد الدين عبد الله بن محمد المعروف بابن الخوام الحربوي مدرس المدرسة الغازانية ببغداد وأحد الحكماء من أصحاب الوزير رشيد الدين فضل الله وقد اتهم بالزندقة ولكنه جدد إسلامه كما يظهر من الهجاء :

يا حزبَ إبليسَ ألا فابشروا إن فتى الخوام قد أسلما
وكان فيما قالَ من كفره « أن رشيد الدين ربُّ السما »
وقال لي شيخٌ خبيرٌ به ما أسلم الشيخُ بل استسلما (٢)

٤ — والعامل الرابع هو وجودُ بني الجويني والمقتدين بهم من صاغيتهم وأصحابهم وكذلك وجود أسر أخرى كبيت نصير الدين الطوسي الذي نوهنا به في فضل الوقوف على الأدب ، والذين اشتهروا بحماية الآداب والعلوم والفنون من بني الجويني علاء الدين عطا ملك وأخوه شمس الدين محمد الجويني صاحبُ ديوان الممالك الإيلخانية وابنه شرف الدين هارون بن شمس الدين ، قال العلامة شمس الدين الذهبي « كان علاء الدين وأخوه فيهما كرم وسؤدد ولقد بالغ بعض الناس وقال : عُمّر صاحب الديوان علاء الدين بغداد حتى كانت أجود من أيام الخليفة ووجد أهل بغداد به راحة ، وكان الرجل الفاضل اذا صنف كتاباً ونسبه إليهما تكونُ جائزته ألف دينار ، وقد صنف شمس الدين محمد بن الصيقل الجزري خمسين مقامة وقدمها اليه فأعطى

(١) الحوادث ص ٤٠٦ . (٢) الدرر الكامنة « ج ٢ ص ٢٩٥ » .

ألف دينار [١] » .

والمقامات التي أشار اليها الذهبي هي المقامات الزينية منها نسخة مخزونة في إحدى خزائن الكتب بسوهاج من الديار المصرية وقد صورتها الادارة الثقافية بالجامعة العربية وحفظتها مع مخطوطاتها . ومنها نسخة ناقصة [٢] في مكتبة مديرية الآثار . وكانت وفاة مؤلفها سنة « ٧٠١ » وكان تأليفها في العراق وقرئت على مؤلفها برواق المدرسة المستنصرية وتمت قراءتها يوم الثلاثاء سابع عشر من جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وستمائة بمحضر جمع غزير من الأدباء والمستأدبين منهم الأديب الفقيدعي عمادالدين أبو العباس محمد بن علي بن جعفر البانني وقد توفي سنة « ٧٢٠ » وله قصيدة يمدح بها مؤلفها منها :

أمولايَ شمس الدين يا عالِيَ النَّجْرِ ... ويا مَنْ عَلا قدراً على هامة النسر

لقد طُفْتَ أهل العصر طُراً بما حوَت ... مقاماتُك الفصحى من النَّظم والنثر

فلو كان يُغني الأرضَ علمٌ عن الحيا ... لما اغبرّتْ أرض الى وابل القطر [٣]

ولا نود أن نفيض في ذكر من سمع هذه المقامات إلا أننا نذكر من نقلها الى مصر بالسماع وهو الأديب نجم الدين عبد العزيز بن عبد القادر البغدادي المتوفى بالقاهرة سنة « ٧٤٨ » [٤] . وقد ذكرها صفي الدين الحلي فانه يقول في باب حل المنظوم من ديوانه ما هذا نصُّهُ « مما اقترحه عليَّ الشيخُ فلان حين وقف على بعض مقامات [٥] أنشأتها كالتوأمية المسطورة رسالتها أمام هذه السطور فقال أيدّه الله : إنَّ من أصنع ما أنشأه الشيخ شمس الدين معدّ بن نصر الله الجزريّ في مقاماته الزينية حلَّ المنظوم الذي في المقامة الثانية وهو أنه عمد الى ثمانية أبيات من الحماسة فجمع حروفها وبسطها رسالة ثم أعادها وجمع أبياتاً على الوزن والرويّ من غير زيادة حرف

(١) تاريخ الإسلام ، نسخة المتحف البريطانية ذات الرقم ١٥٤٠ في الورقة ٦ ومنه أو من الوافي بالوفيات للصفدي نقل مؤلف فوات الوفيات « ج ٢ ص ٣٧ » .

(٢) الفهرست التمهيدي للادارة الثقافية ص ٢٩٦ وكشف الظنون « المقامات الزينية » .

(٣) تلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ١٢٣ » .

(٤) الدرر الكامنة « ج ٢ ص ٢٩٤ » وتلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ١٠٦ » .

(٥) الصواب حذف « بعض » لأنها لا تضاف الى جمع منكر عند الفصحاء .

ولا نقصان حرف [١] . فهذه اشارة الى انموذج صناعي لفظي من مقامات ابن الصيقل الجزري ، وهذه هي الصبغة الغالبة عليها فهي من الأدب ذي الصناعة اللفظية .

وألّف كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني شرحاً لنهج البلاغة وسمّاه « مصباح السالكين لنهج البلاغة من كلام أمير المؤمنين » وذلك لإقرائه أبا منصور محمد بن مظفر الدين علي بن علاء الدين الجويني وذكر في المقدمة أنه اتصل بخدمة علاء الدين وأن علاء الدين اعترف له بأسفه على أنه لم يدرس نهج البلاغة ونسب مؤدّ به إلى التقصير لاشغاله ـ كما يقول المؤرخون ـ بتاريخ اليميني ومقامات الحريري وسائر منثور كلام العرب ففي كل ذلك جهد وتكلّف وعسر مع خلوه من مطالب أولي الهمم العالية ، والمقاصد السامية واشتماله على الحكايات المضحكة والأخبار الملهية بخلاف نهج البلاغة [٢] .

وكنا ذكرنا أنّ علاء الدين كان يقترح على الشعراء مواضيع في الشعر فكأنه كان يريد أن يحكي دور الخلفاء والأمراء في ذلك ، وقد نظم له أحد الشعراء قصيدة كلّ أسمائها مصغّرة يقول في أولها « بُريقٌ بالأجَيْرِع في الفجير » ولم يمكنه نظم بيت واحد في مديحه لأنّ شأن المديح التعظيم لا التصغير [٣] .

وكان إقبال بني الجويني على الأدب العربيّ بالعراق حادياً لأتباعهم وصاغيتهم على الاقتداء بهم كما أومأنا اليه وإنْ كانوا من الفرس ، فبنو الجويني انتسبوا الى الفضل بن الربيع ، وكان من اليسير وجدان نسب لمن يودّ الاتصال بالعرب كما هو الحال في كل زمان ، فقد ذكروا أنّ عز الدين عبد العزيز بن جعفر النيسابوري ملك البصرة في ذلك العهد انتسب الى مالك الأشتر النخعي وألّف له السابة الشهير في تاريخ العراق جمال الدين أبو الفضل أحمد بن المهنا العلويّ الحسينيّ صاحب مشجرات الأنساب وكتاب « وزراء الزوراء » كتاب « المدائح الغريزية في المدائح العزيزية » ، ولنجم الدين عبد السلام بن الكبوش البصري الشاعر المجيد مدائح كثيرة فيه ولما مات رثاه بقصيدة تعدُّ من خير المراثي العربية في ذلك العصر ، وهي التي يقول في أولها :

(١) ديوان الصفي الحلي « ص ٤٨٤ » . (٢) كشف الظنون في « نهج البلاغة » .
(٣) ديوان الصفي الحلي « ص ١١٩ » وتاريخ آداب العرب للرافعي « ج ٣ ص ٣٧٣ » .

لم أبكِ حتى بكى لك الكرمُ والسيفُ يوم القِراع والقلمُ
من بعد عبدالعزيز لا وخَدَتْ الى رسُوم المكارم الرُّسُمُ
الموقدِ النارَ فى الدجى كرماً بالمندل الرطبِ والشتاشِيمُ[1]

وكان عبد العزيز النيسابوري هذا ، لمجالسة أهل الفضل له وكثرة معاشرتهم إياه يتنبه على معان حسنة ويحلّ الألغاز المشكلة أسرع منهم ولم يكن له حظ من علم فادعى ذات يوم ببيتين نظمها له عبد السلام بن الكبوش البصري الذي ذكرناه آنفاً ، وأراد مدح علاء الدين الجويني بهما وهما :

عطا مَلكٍ عطاؤكَ مُلكُ مصرٍ وبعض عبيد دولتك العزيزُ
تجازي كلَّ ذي ذَنبٍ بعفوٍ ومثلُكَ من يجازي أو يجيزُ

فأنشدها بحضرة الصاحب علاء الدين وتم الانتحال وخفي الأمر على الممدوح[2]، فانتحال هذا الملك الصغير للبيتين واستهدافه للفضيحة يدلان على علو قيمة الشعر في برهة الخضرمة بين الدولتين العباسية والايلخانية ، ولقد علم أدباء الأقطار العربية الأخرى بهوى بني الجويني في الادب العربي ، فانتجعوا مرابعهم واسترفدوا منافعهم فمنهم فخر الدين أبو نصر أحمد بن أسامة الشاعر الحلبي فانه مدح الصاحب شمس الدين الجويني أخا عز الدين بقصيدة نظمها سنة «٦٦٦» « وكان فخر الدين بن أسامة الحلبي هذا شاعراً فاضلاً يكتب خطاً مليحاً وأول تلك القصيدة هو:

لي فؤادٌ مدلّهٌ بهواها وجفونٌ جفَتْ لذيذ كراها

ومنها :

صاحب ما رأى عقيلة فضل وثناء تباع إلا شراها[3]

وشاع اسم علاء الدين الجويني شيوعاً عظيماً حتى ركّبوا عليه قسما من حكايات مائة ليلة وليلة والف ليلة وليلة وذلك فى الجزء الخامس خاصة . ونذكر بعد بني الجويني بني نصير الدين الطوسيّ فقد كانوا من حماة الأدب والعلم وأرباب الفضل على الأدباء وذوي الاحسان الى العلماء

(١) الحوادث « ص ٣٧٨ » . (٢) الفخري « ص ١٢ » .
(٣) تلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ٢١٨ » .

وعنايتهم بالوقف وتوزيعه بين المدارس وفيها العلماء والأدباء من الأمور المشهورة .

ومما يذكر في هذا الباب أبيات عفيف الدين أبي محمد ربيع بن محمد الكوفي لما أخرج من دار المدرسة المغيثية الحنفية ببغداد كتب بها الى أصيل الدين الحسن بن نصير الدين الطوسي وهي :

إنا مدحناكَ لا من أجل حاجتنا ... لكن لفضلكَ إن الفضلَ ممدوحُ

وبابُ حاجتنا إن سدهُ قدر ... فعندنا لك باب العز مفتوح

ولي اذا نلتها أو لم أنل أمل ... على فنائك ملقى الرحل مطروح [1]

وفي أصيل الدين هذا يقول مؤلف « غاية الاختصار في البيوتات العلوية المحفوظة من الغبار » إن صحت التسمية في مقدمة كتابه هذا « أصيل الحق والدين ، نصير الاسلام والمسلمين ، الذي أنشر ميت الفواضل ونشر طي الفضائل ، وأقام مراسيم العلوم في عصر كسدت فيه سوقها ، وأنهض متعدات المحاسن بعد ما عجزت عن حمل أجسامها سوقها ، وذب عن الأحرار في زمان هم فيه أقل من القليل ، وملأ أيديهم من حبائه بأياد واضحة الغرة والتحجيل ، وحقن من وجوههم ما دونه إراقة دمائهم ، وحرس عليهم وقد شارفوا زوالها بقية ذمائهم » [2] .

ومن أخبار رعايتهم للعلم والأدب ما ذكره أحد مؤرخي الحنابلة في ترجمة فخر الدين أحمد ابن نصير الدين الطوسي قال : « ورد بغداد صحبة الأمير أروق في منتصف شعبان سنة ثلاث وثمانين وستمائة والناس قد قحطوا والأئمة من خير الوقف وخيره قد قنطوا فأجراهم على أحسن القواعد وأدر أخبازهم ووظائفهم وعوتب على ذلك فلم يُصغ الى مقال وشكرت طريقته وقصده الشعراء فأجزل صلاتهم » [3] . وقد ذكرنا قبل هذا أنه حذف حصة الدولة من الوقوف أي الأوقاف ووفرها على مستحقيها .

٥ ـ والعامل الخامس هو حرية الأدباء في رهبة الخضرمة بين الدولتين في العصر المغولي فان تحرر الملكات المزمومة واطلاق القرائح المقيدة المكعومة كان من البواعث القوية على الكتابة والنظم في أشياء لم تكن الحالة الاجتماعية ولا الحالة الدينية لتسوغها من قبل ولا لترخصا فيها ،

(١) تلخيص معجم الألقاب « ج ٤ ص ٦١ » . (٢) غاية الاختصار « ص ٩ » .

(٣) تلخيص معجم الألقاب « مج ٤ ص ٢٢٤ » .

وفي الحق أن من القرائح والملكات الأدبية ما يموت في أول نشأته فيكون ضحية للمجتمع لأنّ الخوف والحياء أحياناً وحبّ العافية في أصحابها أحياناً أخرى تحول دون ظهورها أو تزمّها عن معالجة أمور هي شديدة التوقان اليها ، ومطبوعة عليها ، ومن الشعراء الذين ظهر أثر الحرية في شعرهم بعد سقوط الدولة العباسية شمس الدين محمد بن عبيد الله المطلبي الكوفي الشاعر، كان واعظ بغداد في أيام بني العباس ومن فحول شعرائها وهو شيخ شعراء الحضرمة بين الدولتين فإنه لم يكن يجرؤ أن يقول في أيام بني العباس ما قاله من التغزل بمملوك الصاحب علاء الدين الجويني ناصر الدين خطلو شاه ويغيره من الغلمان ، قال في خطلو شاه في أيام شبابه :

آهٍ ولا أعذلُ إن قلت آه ... قد قَتَلتني مقلتا خطلشاه
فعارضاهُ واشرحا قِصّتي ... لهُ وما قد فعلاَ عارضاه
لم يَفْتَرِقْ من لا رأى حسنَهُ ... ولا سُبِيَ يا قومُ من لا سَباه
خاطرتُ بالروح لِذكري له ... غايةُ ما في الباب « دقوا قفاه »

وناصر الدين خطلع شاه هذا صار والياً بعد ذلك على العراق وبنى رباطين بالبصرة والمدائن ومدرسة بالمأمن جنوب واسط ثم قتل ودفن برباطه بالمدائن ، فبلغت الأبيات علاء الدين الجويني فكتب اليه « حرمة الشيب والآداب تمنعنا عن غاية ما في الباب وقد رسمنا لمملوكك خطلشاه أن يأتي اليك كلّ نهار كرتين [1] » . فأخجله بذلك .

وكتب شمس الدين الكوفي هذا على يد غلامه الى أحد الأعيان :

إني جعلت رسولي من كلفت به ... وقد كتبت بما ألقى من الوَصَب
فدع كتابي وسل عني لواحظه ... « فالسيفُ أصدقُ أنباءاً من الكتب » [2]

وممن تأثر بشعره بهذه الحرية فخر الدين أبو المظفر محمد بن الاشرف علي العلوي الحسني قال : وقد دخل تبريز فرأى فيها من رأى :

حلّ تبريز شادن ... سلب الروح والبدن
وبساجي لحاظه ... صدّ عن مقلتي الوسن

(١) فوات الوفيات « ج ٢ ص ٢٩٩ » . (٢) الحوادث « ٣٩٠ » .

أنا من فرط حبه ذو غرام وذو شجن
عجميٌ إنْ قلتُ « من » همتُ فيه يقول « من[1] »

وقد تقدم ذكر هذا الشريف الشاعر في الكلام على شعر المناسبات فهو صاحب الأبيات الميمية في ابن الخوّام .

وفي ديوان صفي الدين الحلي من الصرح بالخلاعة والسفاهة والتصريح بالفسق ما لا يحتاج إلى استشهاد . وكان هذا الضربُ من الأدب الغلامي الفاجر مع كونه معروفاً منذ أيام أبي نواس ومن لفّ لفه ، وحذا حذوَه ، نادراً في أواخر أيام الدولة العباسية ، فان الخلفاء العباسيين وأرباب دولتهم كانوا ينكرون مثل هذا الأدب أشد الإنكار فلم يكن أكثر الغزل يتعدى الأوصاف الطبيعية لكل جميل ، وما قيل بالتذكير فاكثره أريد به التأنيث ، وللارادة أمارات .

ونظم عامر بن عامر البصري الصوفي الحكيم تائيته في وحدة الوجود وفنون التصوف الأخرى وعدة أبياتها « ٥٠٦ » وجعلها اثني عشر نوراً وقفاها بلمعة من أحواله[2] ، ولم تكن هذه التائية مما يحتمله عصر بني العباس لما فيها من الأمور المباينة لمذهب الجمهور وعقائده وقد تمّ نظم هذه القصيدة بسيواس من بلاد الروم أي الاناطول لأن ناظمها هاجر من العراق بعد أن ادعى أحد الرقعاء أنه عيسى بن مريم ـ ع ـ فصدّقه صاحب التائية هذا ، ولما أخذ وأحرق سنة « ٦٦٩ » رثاه عامر البصري هذا بأبيات ، فلعل ملابسته لتلك الرقاعة كانت السبب في هجرته من العراق ، ولكنه كان عراقياً على كل حال وقضّى ثلثي عمره في العراق .

وقد أساء جماعة من الأدباء استمتاعهم بالحرية الأدبية ومنهم ابن الحشكري النعماني الشاعر بلغ علاء الدين الجريني عنه أقوال تُنافي الشرع وتعرب عن زندقته كاعتقاده فضل شعره على القرآن الكريم ، وفي سنة « ٦٦٦ » انحدر علاء الدين من بغداد الى واسط فلما بلغ النعمانية حضر عنده ابن الحشكري هذا فأنشده قصيدة يمدحه بها ، وفي أثناء انشاده أذّن المؤذن فانصت له علاء الدين واستنصت ابن الحشكري فقال لعلاء الدين « يا مولانا اسمع شيئاً جديداً وأعرض

(١) تلخيص معجم الألقاب ، مجلد ٤ ص ٢٦٥ .
(٢) نشرها المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٩ بعناية الشيخ عبد القادر المغربي .

عن شيء له ســـنين » . فثبت عند علاء الدين ما قيل فيه وتأكدت عنده زندقته فأمر بقتله فقتل[١] . والانسان يمكنه أن يكون كما يشاء في الديانة ولكنه لايجوز له البتة أن يطعن فى دين غيره بهذا النحو ولا أن يدعو إلى التهاون به والازدراء له .

وكان أبوه مزيد الخشكري من فحول شعراء العراق وكان جريئاً على الهجو . وحال هـذا الخشكري المقتول على الزندقة تذكرنا قول بشار بن برد وقد سمع جارية تغنى بشعره فطرب : « هذا والله أحسن من سورة الحشر »[٢] .

ومن آثار تلك الحرية الأدبية فى التأليف « التاريخ الفخري » . وتواريخ ابن الفوطي وكشف الغمة فى معرفة الأئمة لبهاء الدين علي بن عيسى الكردي الاربلي ، فلو كان هؤلاء ألفوا كتبهم على عهد الدولة العباسية ما استطاعوا أن يحرروا أقلامهم هـذا التحرير ولا أن يعربوا عن مرادهم هذا الاعراب ، ولو لا تلك الحرية أيضاً ما قدر صفي الدين الحلي أن يناقض قصيدة ابن المعتز التي ادّعى فيها لجده العباس بن عبدالمطلب -رض- وراثة النبي -عليه السلام- وقال فيها قال يخاطب العلويين :

ونحن ورثنا ثيـاب النبي ... فكم تجذبونَ بأهدابهـا ؟!
لـكم رحمٌ يا بني بنتـهِ ... ولـكن بنُـو العم أولى بهـا
قتلنـا أميّةَ في دارهـا ... ونحن أحقُّ بأسـلابهـا

فقال صفي الدين يناقضه :

ألا قُـل لشـر عبيـد الاله ... وطـاغي قريش وكـذابها
وباغي العبـاد وباغي العنـاد ... وهاجي الكـرام ومغتابها
أأنت تُفـــاخر آل النبيّ ... وتجحـدها فضل أحسابهـا
بكُمْ باهلَ المصطفى أم بهم ... فردَّ العُداةَ بأوصابهـا ؟

(١) الحوادث « ص ٣٥٩ » والبداية والنهاية « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس الرقم ١٥١٦ الورقة ١٠٥ » والكتاب مطبوع طبعة رديئة كثيرة التصحيف. وعقد الجمان للعيني « فيها أيضاً الرقم ١٥٤٣ الورقة ١٩٨ » .

(٢) الأغاني « ج ٣ ص ٢١١ » من طبعة دار الكتب المصرية .

وعندك لا تورث الأنبياء فكيف تحظيم بأنوابها ؟ (١)

ولم تكن مناقضة صفي الدين على شيء من الفتوة لأن حريته كانت رعناء سادرة تحب أن تنتقم لنفسها انتقاماً جافياً مع أن قرع الحجة بالحجة أفحم للخصم .

٦ — والعامل السادس هو الغناء ، وكان في عهد المستعصم بالله مزدهراً متوفاً اليه مُقبلاً عليه لاستهتار هذا الخليفة به وولوعه به ، فاطّرد تياره في الدولة الإيلخانية ونبغ فيه مغنون مَهَرة وموسيقارون فَوَقة وشاع غاية الشيوع ، والظاهر أن المغول استطابوا الغناء والموسيقى العراقيين ، واقتبسوا منهما كما اقتبسوا من غناء الفرس وموسيقاهم ، وكذلك فعل العراقيون بالغناء المغولي ولا تزال آثار الاقتباس واضحة في المقامات العراقية ، ومن البداهة أن الغناء يعتمد على الشعر فلذلك كان الغناء من أقوى أسباب الرغبة في النظم والاجادة فيه ، ولقد رأى ابن بطوطة في هذا العصر بالصين جماعة يغنون بالشعر العربي (٢) ، ثم إن القاآن أبا سعيد بهادر خان آخر ملوك الدولة الايلخانية كان يتغنى ولكن بالشعر الفارسي لأنه درس الموسيقى على كمال الدين التبريزي مخترع اللحن المعروف بالبيشروف أي البشرف (٣) ، ونشأت في هذا العصر بالعراق طبقة عالجت الغناء والأدب والموسيقى معاً . ومنهم من أضاف إلى هذه الفنون الخطّ .

ونذكر منهم شيخهم وأقدمهم صفي الدين عبد المؤمن بن فاخر الأرموي مؤلف رسالة الأدوار في الموسيقى وغيرها من الكتب ، وجمال الدين ياقوتاً المستعصمي الشاعر الخطاط الموسيقار ذا الخط المنسوب الفائق ، ومؤلف رسالة الحكماء النفيسة . والمغني التوتي نسبة الى محلة التوتة بالجانب الغربي من بغداد قرب تربة الشيخ الجنيد الصوفي ، اشتهر من غنائه السيكاه :

عليلُ الشوق فيكَ متى يصحُّ وسكران بحبكَ كيف يصحو ؟
وأعجبُ ما يكون له شفاء فؤادٌ من لحاظك فيه جرحُ
وبين القلب والسلوان حربٌ وبين الجفن والعبرات صُلح

(١) ديوان الصفي « ص ٥٢ — ٣ » . (٢) رحلة ابن بطوطة « ج ٢ ص ١٦٧ » .
(٣) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، نسخة باريس « الرقم ٨٧٠ الورقة ١٦٧ » .

مزحتُ بحبكم يا صاح جهلا وكم جلب السقام عليَّ مزحُ[1] ؟

ومنهم زين الدين بن الدهّان الموصلي ثم البغدادي الذي ذكرناه في شعر المناسبات . وكان ماهراً في الشعر والموسيقى والأدب عامة ، وله مؤلف في الموسيقى ، وكان شعرهُ سائراً يتغنى به هو وغيره . ومنهم شمس الدين أحمد بن يحيى بن محمد بن شهاب الدين عمر البكري السهروردي من ذرية الشيخ الجليل الزاهد سفير الخلافة العباسية عمر البكري السهروردي دفين شرقي بغداد ، بلغ في الموسيقى الغاية القصوى ، وتلقف الناس تآليفه فيها تلقفاً شديداً في الشرق والغرب ، واشتهر خطه بالعراق وخراسان وفارس وبلاد الروم ، إلا أن شعره لم يكن بذاك . ومنهم نظام الدين يحيى بن عبد الرحمن الجعفري البغدادي من ذرية جعفر بن أبي طالب الطيار ، كان أديباً منشئاً وخطاطاً وموسيقاراً ، وقد عده شمس الدين الذهبي الدمشقي المؤرخ المشهور من شيوخه في المعجم المختص ، وكان بارعاً أيضاً في تشجير الأنساب ، وشجَّر في العلوم على اختلاف أنواعها فكان نابغة عصره . وكان يكتب الكتب العربية في ديوان الدولة الايلخانية . قال ابن فضل الله العمري في ذكره : لقد كانت تجيء بخطه الكتب المليحة البليغة بالخط المليح والألفاظ الفصيحة السهلة التناول القريبة المأخذ ، على خاطري منها [قوله] في كتاب كبير عن أبي سعيد بهادُرخان الى سلطاننا محمد الناصر في معنى الحاج العراقيّ وأنّ توجههم من العراق الى الحجاز أقرب عليهم من توجههم من الشام الى الحجاز ، قال فيه : « والقلوب بالاحسانِ تملك ، وأقرب الطرق الى الله أولى بأن يسلك » .

قال : « وهاتان الكلمتان تقومان في المعنى المقصود مقام كتاب مطول مع خفة موقعها وتمكنها في موضعها . ولقد كان يقع في كتبه في هذه النسبة كلُّ حسن »[2] .

وقال الصفدي : « اذا رأيت خطه في المهارق ، أنساك سحر الأحداق وزهر الحدائق »[3] .

وآخر من نذكر منهم يحيى الغريب الواسطي المعروف بالشيب[4] .

---

(١) مسالك الأبصار « الورقة ١٦٠ » ، وديوان سبط ابن التعاويذي « ص ١٠٢ » .
(٢) مسالك الأبصار « الورقة ١٨٥ » .
(٣) ذيل تاريخ الاسلام لابن قاضي شهبة « ٢٦/١٦ » من أصول التاريخ والأدب .
(٤) مسالك الأبصار أيضاً .

٧ ـ والعامل السابع هو الحلّة ، فهذه المدينة المباركة في الأدب العربيّ التي اشترك في تأسيسها بنو أسد وحلفاؤهم من الأكراد المستعربين من قبيلة (جاوان) كانت قد احتضنت العلم والأدب والشعر منذ أسست الى عصرنا هذا ، لم تغيّرها عن ذلك غير الدهر لغلبة الصبغة العربية عليها . وقد نبغ فيها أدباء وشعراء طبّقت شهرتهم الآفاق ، منهم راجح الحلي شاعر بني أيوب أيام الحروب الصليبية ، وأشهرهم في العصر المغولي صفي الدين الحلي ، وصاحبه مهذب الدين محمود بن يحيى الشيباني ، وصفي الدين محمد بن الحسن بن أبي الرضا العلوي ، وعلاء الدين أبو الحسن علي ابن الحسين المعروف بابن الشهفية ، وشمس الدين محفوظ بن وشاح الحلي ، وعماد الدين أبو عبد الله محمد بن علي الشيباني .

وفذلكة القول أن الحلة كانت معقلاً من معاقل الأدب العربي في أيام المحن ، ومربعاً من مرابعه في أيام السلم ، وما من شك في أنّ سلامتها من سيوف المغول اللاحقة أثراً حسناً في اتصال سيرتها الأدبية واستمرارها على أحسن أحوالها ، فبغداد كانت قد فقدت عشرات من أدبائها وشعرائها في الوقعة الهولاكية المشؤومة ، منهم من قتلوا غدراً ، ومنهم من قتلوا صبراً ، منهم : يحيى الصرصريّ الضرير الذي أكثر من مدح رسول الله ـ ص ـ في شعره حتى عرف بشاعر رسول الله ، وديوان شعره مشهور في عداد المخطوطات الشعرية العراقية النفيسة . ومنهم موفق الدين عبد القاهر ابن الفوطيّ البغداديّ الحنبليّ صاحب القصائد الغر في وصف الحالة الاجتماعية والحالة السياسية اللتين صارت اليهما الدولة العباسية قبل سقوطها ، ولقد نعى في الحقيقة الدولة العباسية ، ونعى نفسه معها بقصيدة طويلة ، منها :

واضيعةَ المُلك والدين الحنيف وما ... تلقاهُ من حادثات الدهر بغدادُ

أينَ المنيةُ مني كي تساورني ؟ ... فالعمرُ إصدارٌ وإيرادُ

من قبل واقعة شنعاء مظلمة ... يَشيبُ من هولها طفلٌ وأكبادُ[1]

هذه هي العوامل السبعة التي عملت على بقاء الأدب العربيّ العراقيّ في معظم قوته ، وإن تأثرت مظاهره وتطورت أغراضه .

(١) الحوادث «ص٣٢١ـ٢» ، وتأريخ الخزرجي «الورقة ١٨٩» .

خصائص الأدب العراقي في العصر المغولي

أشرنا فيما سبق أن قدمناه من هذا البحث الى أن الأدب العراقي العربيّ استمرّ في أول العصر المغولي من حيث القوّة متشافلاً على ضعف ألحقه به فقدانه عنصر العروبة في الدولة الحاكمة وقلّة الأدباء الناشئة عن تلف فريق منهم تحت سيوف المغول، وذكرنا من أحوال مخضرمي الدولتين من الشعراء ما يؤذن بأنّهم كانوا قوام ذلك الاطراد في الشعر الجزل. أما النثر فقد أصابه ضعف شديد في الجوهر والمظهر، لأن صناعته لفظية، وليس لها مما للشعر من القوة العاطفية والشيوع والهوى المجتمعي، فالدولة الايلخانية ما استعملت اللغة العربية إلا في أمور العراق وشيء من المراسلات مع الأقطار الاسلامية كمصر والشام، فكان النثر مستعملاً في أهون أساليبه وأقربها الى لغة العامة، وقد حلّت اللّغة الفارسية واللغة المغولية مكان اللغة العربية في أكثر بلاد الشرق الأوسط. ولافتراق الشعر والنثر في هذا العصر، ينبغي لنا أن نذكر خصائص كل على حدة، ونبدأ بالشعر، فان الضعف الذي أصابه لم يظهر عليه إلا في أواخر القرن السابع للهجرة، ونستطيع أن نحدّ حركة استمرار قوته القوية بكتاب « لطائف المعاني في شعراء زماني » للعلامة المفتن الأديب المؤرخ تاج الدين ابن الساعي المتوفى سنة ٦٧٤ هـ، وشيخ الشعراء في هذه البرهة كما قدمنا هو شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي، وقد أشرنا الى ذلك، وهو شاعر عباسيّ النشأة وقد عرضنا لشيء من أحواله قبلاً. فاذا تجاوزنا تلك المدة لاحت لنا خصائص الشعر في العصر المغولي، وهي الميل الشديد الى نظم معجزات النبيّ ـ ص ـ ومناقب الخلفاء والأئمة، والاقبال التام على النظم التعليميّ ومنه البديعيات والصوفيات والوعظيات واللغزيات والزهديات، وقيام سوق الأدب المتحلّل من الأدب، وطغيان النظم في الحبّ الحرام ووصف الغلام، واستتبع ذلك شعراً هزلياً كثير المجون، ثم الولوع بنظم الطرديات الطائرية وهي وصف البرزات الى صيد الطير الجليل، ويعرف أيضاً بالواجب الذي كان الخليفة الناصر لدين الله صنّفهُ أربعة عشر صنفاً، وألف فيها العالم الفقيه الشافعي محمد بن اسماعيل بن ودعة المعروف بابن البقال معيد المدرسة النظامية ببغداد كتاباً سماه « المقترح في المصطلح » لضبط أحكام الرمي

ومسائله وقواعده وفتاواه على وفق المباحث الفقهية [1] ، ثم ألفت فيه وفي فتاواه عدة كتب .

ومن خصائص الشعر في هذا العصر أيضاً العناية بالفنون الصناعيـة كالتوشيح والتسميط والتخميس فضلاً عن الفنون النثرية الصناعية التي كانت مقامات الجزري طليعة لها ، ومنها الميل الى الافتنان في النظم باللغة العاميـة ، لأن الملكة الشعرية في العراقيين لما أعوزها المظهر حافظت على الجوهر الذي هو المعاني . والذي ذكرته من الخصائص لا يعني وقوف النظم عن معالجة الموضوعات الأخرى ، بل قلة النظم فيها ، حتى إنّ صفي الدين الحلي ذكر في مقدمة ديوانه الأسباب التي بعثته على مخالفة ما شبَّ عليه واعتاده من الأغراض الشعرية وحملته على مدح ملوك ماردين الأرتقيين .

وصفي الدين نفسه أول من نظم البديعية النبوية وضمنها معجزات رسول الله ـ ص ـ وفرائد من سيرته الكريمـة ، أما نظم البديعية باطلاقها فقد كان مسبوقاً اليـه ، وافتن في نظم التواشيح وفنون لفظية أخرى ، ذكر جملة منها في ديوانه .

ومن شعراء المناقب بهاء الدين علي بن عيسى الكردي الإربلي وقد قدمنا ذكره في الاتماء الى حرية التأليف ، وفي كتابه « كشف الغمة في معرفة الأئمة » عدة قصائد مدح بها أئمة الإمامية الاثني عشر ، وإذ كان نظم المناقب في أصله يعتمد على حشو الشعر بالتلويح والتعريض والتضمين للأحاديث والأخبـار لم يسلم من البرودة ولا تفادى من الإبهام ، وكذلك القول في الرثاء فانه لما توفي العلامة ابن تيمية مثلا وذلك سنة « ٧٢٨ » بدمشق رثاه أحد العراقيين فيمن رثوه ، وهو تقي الدين الدقوقي (أصله من بلدة دقوق أي طاووق الحالية) بمئة وثلاثة وثمانين بيتاً ليس فيها أثر للفن الشعري الرائع مع صدق الشعور وصحة النظم والأوزان . ومن شعراء النظم التعليمي عامر بن عامر البصري صاحب التائية الصوفية ، وصفي الدين الحلي فان بديعيته النبوية تعـد أيضاً من الشعر التعليمي الأصيل . ومن شعراء الوعظيات والزهديات شمس الدين محمد بن أبي القاسم النحي الواسطي المتوفى في أواسط القرن الثامن للهيلاد ، وهو القائل من قصيدة :

بدا البرق من حزوى فهاج حنينهُ وهبَّتْ صَبا نجد فزاد أنينُهُ

(١) يراجع فهرست دار الكتب الوطنية بباريس « ٤٦٢٩ » ورقة ٤ .

(١) العقود الدرية « ص ٣٩٧ ، ٤٠١ » .

وغنّى له الحادي بأيام حاجر ففاضت بأمطار الدموع جفونه

ومن أخرى :

هنيئاً لمن أمسى وأنت حبيبهُ ولو أنّ نيران الغرام تُذيبهُ
وطوبى لقلب أنت ساكن سره ولو بان عنه إلفهُ وقريبهُ

ومن ثالثة :

أنوح اذا الحادي بذكركم غنّى وأبكي اذا ما البرقُ من نحوكم عنّا
بِكمْ وَلهي لا بالعذيب ولا النقا وأنتم مُرادي لا سُعادٌ ولا لبنى

وهو من المجيدين فى الموشحات ، ولكن الضعف كان قد أصابَ الشعر فى عصره . وكان معاصراً لصفي الدين الحلي ، ومن شعراء الشعر المتحلل من الأدب المقصور على الهزل والمجون تقي الدين علي بن عبد العزيز المغربي الأصل ، ثم البغدادي الدار ، صاحب القصيدة الدبدبية ، وكان أيضاً من اللهجين بالنظم فى اللغة العامية ، وله قصائد فى الزجل والكان وكان وغيرها[1] . وكان ديوانه مشهوراً بالعراق . ولما قدم بغداد قاضي القضاة نجم الدين الطشتي سنة « ٧١١ » ، طلب الديوان واستنسخه[2] ، فان كان هذا شأن قاضي القضاة فى الشعر فما ظنك بغيره من أهل الأدب ؟ وفى بغداد ماتن أحد شعرائها سنة «٧٣٤» الشيخ زركوب الشاعر الفارسي ومدح بغداد[3] .

وأما الطرديات الطائرية المنظومة فى صيد الطير الجليل ووصفه ، فأمثلتها فى ديوان صفي الدين الحلي[4] ، وهي أراجيز رائعة فيها افتنان بَيّن ، وإجادة مبينة . والذي سبق إلى هذا الفن من النظم هو الراعي الكبير الشاطر الشهير عمر بن السفت من أهل القرن السادس للهجرة (والسفت منقاش الصائغ) ، وكان رجلاً عامياً الا أنّ الابداع مركوز فى الطباع ، قال فى مسمطته الطردية :

هيج لي البرق على الخيف أضا طيب لياليا على وادي الغضا
مع طيب عيشٍ قد تولى ومضى آه له لما تولى وانقضى
بل آه والهفي على تلك الدول

(١) فوات الوفيات « ٢/٥٧ » . (٢) تلخيص معجم الألقاب « ٤/٣٤٣ » .
(٣) حافظ الشيرازي لابراهيم بن أمين الشواربي « ص ٢١ » .
(٤) ديوان الصفي « ص ٦٥ ، ١٤٢ ، ١٥٣ » .

أتهمَ في أفق السما وأنجدا وقربته الرعدُ به ثم حدا
فصحتُ مما حل بي : واكمدا يا سعدُ إن كنت زميلاً مسعدا
قف بالحمى دون الكثيبين وسَلْ

وانشد فؤاداً ظل في ذاك الحمى لما سما البارق في أفق السما
وفاض دمعي فوق خديَّ دما أهلاً بطيف حل بالخيف فما
أدري وما يدري فؤادي ما فعلْ

إن لمتني في حبهم فلا تلمْ إذا تأوهتُ لعيشٍ لم يدمْ
كأنه قد كان في طيف الحلمْ فيا زميلي لوّح الصبح فقمْ
نتهب الفرصة من قبل الأجل[1]

ومن هذا التشبيب يفضي الى البروز لصيد الطير ، ويذكر أنواع الجليل منها ، ويتغزل بطائر طائر ثم يذكر مصرعه . وهذا نظم مستملح مستجاد مستحسن الصياغة من ابن منقاش الصائغ (ابن السفت) ، وقد قلده كثير من شعراء العصر المغولي .

وقبل أن أخلص الى الشعر العامي أود أن أذكر أن جماعة من شعراء هذا العصر قد ذكرهم المؤرخ المحدث الكاتب ابن الفوطي الحنبلي البغدادي في كتابه « نظم الدرر الناصعة في شعراء المئة السابعة » وهو مدخل لكتاب ابن الساعي « لطائف المعاني في شعراء زماني » الذي ألمعنا اليه ، وذكرهم ابن الفوطي أيضاً ومن بعدهم في كتابه تلخيص معجم الألقاب كما تبينت من الجزء الرابع المصور المخزون في دار كتب المتحفة العراقية ، ومن الجزء الخامس المطبوع بلاهور في باكستان . وقد ذكر في تلخيص معجم الألقاب مثلاً أنَّ ديوان فخر الدين أبي المظفر محمد بن الأشرف العلوي الذي ذكرت له مقطوعتين من قبل كان ينيف على عشر مجلدات[2] .

وأفضي الى الشعر العامي فأقول : إنه شاع في العصر المغولي وبلغ غايته فيه ، وعالجه فحول الشعراء

(١) كتاب الفتوى في البندق مع المقترح في المصطلح المذكور « أصول التأريخ والأدب « ٩/٢٤ » .
(٢) تلخيص معجم الألقاب « ٤/٢٦٥ » .

شمس الدين محمد الكوفي وهو من شعراء الحضرمة ، وتقي الدين علي المغربي وقد أشرت الى ذلك ، وشمس الدين الواسطي ، وصفي الدين الحلي . ولاهتمام الناس واقبالهم عليه واستفحاله ألّف فيه الصفي الحلي كتابه « العاطل الحالي والرخص الغالي » ضمنه الزجل والمواليا والكان وكان والقوما [١] . ولذلك قال في مقدمة ديوانه : « وقد أعريتُ هذا الكتاب ، عن كل ما عرى من الإعراب ، من الفنون الأربعة التي لحنُها إعرابها ، وخطأ نحوها صوابها ، وجعلت جزءاً بمفرده ، خارجاً عما نحن بصدده » [٢] . وهذه الفنون الشعرية العامية كانت معروفة في العراق قبل العصر المغولي ، فمنها القديم ومنها المتأخر الزمن ، إلا أنها من اختراع العراقيين وحدهم . ولما حل العصر المغولي لم يأنف كبار الشعراء من النظم فيها ، ولولا لغتها العامية لتمّ لها أن تكون حليفة الإبداع ومتعة الأسماع ، ومن شهادات كبار الأدباء للشعر العامي العراقي ما قاله ضياء الدين نصرالله بن الأثير الكاتب الشهير في فن « القوما » من الشعر العامي ، قال : « بلغني أن قوماً ببغداد من رعاع العامة يطوفون بالليل في شهر رمضان على الحارات وينادون بالسحور ويخرجون ذلك في كلام موزون على هيأة الشعر وان لم يكن من بحار الشعر المنقولة عن العرب ، وسمعت شيئاً منه فوجدت فيه معاني حسنة مليحة ومعاني غريبة وان لم تكن الألفاظ التي صيغت به صنيعة [٣] » . وقال أديب كبير آخر في الكان وكان : « ومن خالط أهل بغداد وعلماءها عرف فضلهم ولطفهم ، ومن تأمل لطافة العوام بها في مجونهم وحديثهم واشاراتهم التي لا يفهمها أكثر علماء غيرها من البلاد — حتى إن فيهم من يقول الشعر المسمى كان وكان فيأتي بمعان لا يقدر عليها فحول الشعراء — يتبين له فضلهم ولطافة أخلاقهم » [٤] .

مصطفى جواد

(١) المستطرف « ٢/١٩٠ » .
(٢) ديوان الصفي « ص ٤ » .
(٣) المثل السائر « ص ٣٠ » .
(٤) مختصر مناقب بغداد « ص ٣١ ، ٢ » .